أبو عبيدة (معمر بن المثنى)

حديث يوم الكلاب

قال أبو عبيدة: وكان من حديث يوم الكلاب الأول فيما حدث خراش وابن الكلبي هشام بن محمد، أن الحارث الملك بن عمرو المقصور بن حجر آكل المرار الكندي كان فرق بنيه في قبائل العرب، قال فصار شرحبيل بن الحارث في بكر ابن وائل وحنظلة بن مالك وبني زيد بن تميم وبني أسيد و طوائف من بني عمرو ابن تميم الرباب، قال: وصار سلمة بن الحارث في بني تغلب والنمير ابن قاسط وسعد بن زيد مناة بن تميم. قال: وكانت طوائف من بني دارم بن مالك بن حنظلة من ولد أسيدة بنت عمرو بن عامر بن امرئ القيس بن قتيبة بن النمر بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قُضاعة مع إخوتهم التغلبيين لزمهم في بني تغلب... ومع سلمة الصنائع وهم الذين يقال لهم بنو رُقية رجال كانوا يكونون مع الملوك من شذاذ الناس أي ممن شذ منهم أي طرداء الأحياء. قال: فلما هلك أبوهم الحارث بن عمرو تشتت أمرهم وتفرقت كلمتهم، قال: ومشت الرجال بينهم فكانت المغادرة بين الأحياء التي معهم يغير بعضهم على بعض و تفاقم أمرهم حتى جمع كل واحد منهم لصاحبه الجموع وزحف بعضهم إلى بعض بالجيوش. قال: فسارت بكر بن وائل ومن معهم من قبائل حنظلة وبني أسيد بن عمرو بن تميم وطوائف من بني عمرو بن تميم والرباب فنزلت الكلاب، وهو ماء بين البصرة والكوفة. وذلك على بضع عشرة ليلة من اليمامة (على سبع ليال أو نحوها) وأقبل سلمة في بني تغلب

والنمر وأحلافها وفي بني سعد بن زيد مناة بن تميم ومن كان معهم من قبائل حنظلة وفي الصنائع (قال وهم أتباع الملوك) يريدون الكلاب. قال: وكان نصحاء شرحبيل وسلمة قد نهوهما عن التفاسد والتحاسد وحذروهما الحرب وعثراتها وسوء مغبتها. قال: فلم يقبلا ذلك وأبيا إلا التتابع واللجاجة، فقال سلمة في ذلك:

أنّى علي استتب لومكما ... ولم تلوما عمراً ولا عُصما

كلا يمين الإله يجمعنا ... شيء وأخوالنا بني جُشما

حتى تزور الضباعُ ملحمة ... كانها من ثمود أو إرما

قال: وكان أول من ورد الكلاب من جموع سلمة بن الحارث الملك سفيان ابن مجاشع جد الفرزدق . . قال: وكان نازلاً في بني تغلب مع إخوته لأمه، قال: فقتلت بكر بن وائل ستة بنين له فيهم مُرة بن سفيان (قتله سالم بن كعب ابن عمر بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان) وقرط بن سفيان وبيبة بن قُرط بن سفيان، فقال سفيان حين قُتل ابنه مُرة:

الشيخ شيخ ثكلان ... والجوف جوف حران

والورد ورد عجلان ... إلفي إليك مُرة بن سفيان

قال: وفي ذلك اليوم قال الفرزدق:

فوارس منهم عدس بن زيد ... وسفيان الذي ورد الكلابا

ويروي شيوخ. قال: وأول من ورد الماء من تغلب رجلان رجل من بني عبيد

ابن جُشم على فرس له يقال له الخزوب وبه كان يُعرف وهو نعمان بن قُريع بن حارثة بن معاوية بن عبيد بن جشم. قال: ثم ورد سلمة ببني تغلب وسعد وجماعة الناس، قال: وعلى بني تغلب السفاح وهو سلمة بن خالد بن زهير بن كعب بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب، وهو يقول:

إن الكلاب ماؤنا فخلوه وساجراً والله لن تحلوه

قال: فاقتتل القوم قتالاً شديداً وثبت بعضهم لبعض، قال حتى إذا كان آخر النهار من ذلك اليوم خذلت بنو حنظلة وعمرو بن تميم والرباب بكر بن وائل، قال: وانصرفت بنو سعد وألفافها عن بني تغلب وصبر ابنا وائل وتغلب ليس معهم غيرهم حتى غشيهم الليل ونادى منادي شرحبيل: من أتاني برأس سلمة فله مائة من الإبل، ونادى منادي سلمة: من أتاني برأس شرحبيل فله مائة من الإبل. قال: وكان شرحبيل نازلاً في بني حنظلة وعمرو بن تميم والرباب ففروا عنه، قال: وعرف أبو حنش وهو عصم بن النعمان بن مالك بن عتاب بن سعد ابن زهير بن جشم بن بكر مكان شرحبيل فقصد نحوه، قال: فلما نظر إليه رآه جالساً وطوائف من الناس يقتتلون حوله فطعنه بالرمح ثم نزل إليه فاحتز رأسه وأتى به سلمة والناس حوله فطرح الرأس بين يديه، فانحازت بكر بن وائل لما قتل صاحبهم من غير هزيمة تذكر.

قال: وقال أناس آخرون: إن بني حنظلة وعمرو بن تميم والرباب لما انهزمت خرج معهم شرحبيل ولحقه ذو السنينة، وذلك أنه كانت له سن زائدة واسمه حبيب بن بعيج بن عتبة بن سعد بن زهير بن جشم . . . ، قال: فالتفت إليه فضرب ذا السنينة على ركبته فأطن رجله (وكان ذو السنينة أخا أبي حنش لأمه

أمهما سلمى بنت عدي بن ربيعة أخي كليب ومهلهل) فقال ذو السنينة: يا أبا حنش قتلني الرجل، فقال أبو حنش: قتلني الله إن لم أقتله، قال: ومات ذو السنينة فحمل أبو حنش على شرحبيل فأدركه فالتفت إليه شرحبيل فقال: يا أبا حنش اللبن اللبن، قال: قد هرقت لنا لبنا كثيراً، فقال: يا أبا حنش أَمَلكٌ بسوقة؟ قال: إنه كان ملكي، يعني أخاه، قال: فطعنه أبو حنش فأصاب رادفة سرجه فورّعت عنه ثم أهوى له فألقاه عن الفرس ثم نزل إليه فاحتز رأسه وبعث به إلى سلمة مع ابن عم له يقال له أبو أجأ بن كعب بن مالك بن عتاب فأتى به سلمة فطرحه بين يديه، فقال سلمة: لو كنت ألقيته إلقاء رفيقاً، قال: ما صنع به وهو حي شر من هذا، قال: وعرف القوم الندامة في وجهه والجزع على أخيه، وهرب أبو حنش فتنحى عنه. فقال معدي كرب أخو شرحبيل، وكان صاحب سلامة معتزلاً عن حربهما، ويقال إن الشعر لسلمة لا لمعدي كرب:

ألا أبلغ أبا حنش رسولاً ... فمالك لا تجيء إلى الثواب

تعلم أن خير الناس طراً ... قتيل بين أحجار الكلاب

تداعت حوله جشم بن بكر ... وأسلمه جعاسيس الرباب

قتيل ما قتيلك يا بن سلمى ... تضر به صديقك أو تحابي

فأجابه أبو حنش فقال:

أحاذر أن أجيئك ثم تحبو ... حباء أبيك يوم صُنيبعات

وكانت غدرة شنعاء سارت ... تقلّدها أبوك إلى الممات

تتابع سبعة كانوا لأم ... كأجرام النعام الحائرات

قال: وكان أخذ درع شرحبيل منه فطلبها منه أبو حنش ورهطه فأبى أن يدفعها إليهم، فأغار رهط أبي حنش فأخذوا إبلاً لرجل من بني تميم بن أسامة ابن مالك رهط معدي كرب، فقال الذي أخذت إبله:

ألا أبلغ بني تميم رسولاً ... فإني قد كبرت وطال عمري

وإن الدُّهم قد علمت معد ... محبسة لدى عُصم بن عمرو

وطار بها بنو حسان عني ... بأفراس لهم حو وشقر

وأرماح لهم سمر طوال ... كأن كعوبهن حباب قطر

قال: وبلغ الخبر غلفاء معدي كرب أخا شرحبيل فقال يرثي أخاه ويذكر مصابه:

إن جنبي عن الفراش لناب ... كتجافي الأسر فوق الطراب

قوله الأسر من الشرر وهو داء يأخذ البعير في كركرته فتسيل ماء فإذا برك في موضع غليظ تجافى لشدة الوجع:

من حديث نمى إلي فما تر ... قأ عيني وما أسيغ شرابي

مرة كالذعاف أكتمها النا ... س على حر ملة كالشهاب

من شرحبيل إذ تعاوره ... الأرماح من بعد لذة وشباب

يا بن أمي ولو شهدتك إذ تد ... عو تميماً وأنت غير مجاب

لتشددت من ورائك حتى ... تبلغ الرحب أو تُبز ثيابي

أحسنت وائل وعاداتها ... الإحسان بالحنو يوم ضرب الرقاب

ويوم فرت بنو تميم وولت ... خيلهم يتقين بالأذناب

ويحكم يا بني أسيد إني ... ويحكم ربكم ورب الرباب

أين مُعطيكم الجزيل وحابسكم ... على الفقر بالمائين الكُباب

والثمانين قد تخيرها الراعي ... ككرم الزبيب ذي الأعناب

فارس يضرب الكتيبة بالسيف ... على نحره كنضح الملاب

قوله (أجزرونا) أبا سلمى يقول: صيرونا جزراً للأعداء، و (أبو سلمى) من بني رياح أحد بني هرمي بن رياح، و(سفيان) بن حارثة بن سليط بن يربوع، وفي نسخة ابن سعدان (جارية بن سليط). وقال السفاح في ذلك أيضاً:

وردنا الكلاب على قومنا ... بأحسن ورد لهيجا شعارا

وقد جمعوا جمعهم كله ... وجمع الرباب لنا مستعارا

وقال أبو اللحام التغلبي واسمه سريع بن عمرو، وعمرو هو اللحام بن الحارث بن مالك بن ثعلبة بن بكر بن حبيب:

ربعنا بالكلاب وما ربعتم ... وأنهبنا الهجائن بالصعيد

سقينا الإبل غباً بعد عشر ... وغباً بالمزاد من الجلود

وجُرد كالقداح مسومات ... شوازب محلسات باللبود

بكل فتى أطار الغزو عنه ... بشاشة كل سربال جديد

وقال جابر بن حُنى في ذلك أيضاً:

ويوم الكلاب قد أزالت رماحنا ... شرحبيل إذ آلى ألية مقسم

ليســـــتلبن أدراعنا فأزالـــــه أبو حنش عن ظهر شقاء صلدم

تناوله بالرمح ثم ثنى لـــــــه فخر صريعاً لليدين وللفـــــم

وكان معادينا تهر كلابـــــــه مخافة جمع ذي زُهاء عرمـرم

قال: فلما قتل شرحبيل قامت بنو سعد بن زيد مناة دون أهله وعياله فمنعوهم وحالوا بين الناس وبينهم حتى ألحقوهم بقومهم ومأمنهم، قال: وولي ذلك عوير بن شجنة بن الحارث بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة، قال: فحشد له في ذلك رهطه ونهضوا معه فيه فأثنى عليه امرؤ القيس ابن حجر بن الحارث بذلك في أشعاره وامتدحهم وذكر ما كان من كريم وفائهم وفعالهم ووصف ما كان من صبر قبائل بكر بن وائل وما كان من محاماتهم وخص بني قرّان وهو عبدالله بن عبدالعزى بن سحيم بن مرة بن الدُّول بن حنيفة ومحرّق بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة وبني مرثد بن سعد ابن مالك، قال: وهجا بني حنظلة وذكر ما كان من خذلانهم وفرارهم وإسلامهم شرحبيل وانهزامهم وفصّل قبائل حنظلة قبيلة قبيلة فعم البراجم وغيرهم من بني دارم بن مالك بن حنظلة وخص قبائل نهشل و قطن بن نهشل وأمهما مادية المنقرية (امرأة من الأراقم من بني تغلب) الذي قال امرؤ القيس:

بلغ ولا تترك بني ابنة منقر وفقّرهم إني أفقّر جابرا

قوله (فقرهم) يقول: فصلهم فقرة فقرة أي قبيلة قبيلة، يعني بني عوف رهط عوير بن شجنة وهو عوف بن كعب بن سعد. وقال امرؤ القيس:

إن بني عوف ابتنوا حسباً ضيعه الدخللون إذ غـــدروا

أدوا إلى جارهم ذمامهم ولم يضيعوا بالغيب من نصروا

ويروى خفارته، ويروى ولم يضع بالمغيب.

لم يفعلوا فعل حنظل بهم　　بئس لعمري بالغيب ما ائتمروا

وقال امرؤ القيس أيضاً:

أحنظلُ لو حاميتم وكرمتم　　لأثنيتُ خيراً طالحاً ولأرضاني

وقال أيضاً:

ألا قبح الله البراجم كلها　　وقبح يربوعاً وجدع دارما

قال أبو عبيدة: وكان الكلاب يوماً من أيام العرب المشهورة المذكورة فقال فيه شعراء الإسلام وافتخروا بفضلهم فيه وعير بعضهم بعضاً فقال الأخطل في ذلك، مما يدل على تصديقه:

ابني كليب إن عميّ اللذا　　قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وأخوهما السفاح ظمّأ خيله　　حتى وردن جبى الكلاب نهالا

(كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، باعتناء بفان، ليدن ١٩٠٥ ص ٤٥٢-٤٦١)

ذو قار

قال أبو عثمان: حدثنا أبو عبيدة [قال: حدثنا أبو المختار فراس بن خندق القيسي قيس بن ثعلبة وعدة من علماء العرب قد سماهم فراس بن خندق وأثبت الحديث الأصمعي فيما أثبته وعرّفه] إن الذي جر يوم ذي قار قتل النعمان بن المنذر اللخمي عدي بن زيد العبادي، قال: وكان عدي من تراجمة برواز كسرى بن هرمز، قال: فلما قتل النعمان عدياً كان أخو عدي وابنه زيد

عند كسرى وحرّفا كتاب اعتذاره إليه بشيء غضب منه كسرى فأمر بقتله، وكان النعمان لما خاف كسرى استودع هانئ بن مسعود بن هانئ بن عامر الخصيب (قال: الخصيب لقبه وهو الخصيب بن عمرو المزدلف، والمزدلف لقبه وهو المزدلف بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة) حلقته ونعمه وسلاحاً غير ذلك، قال: وذلك أن النعمان بنّاه بنتين له. قال أبو عبيدة: قال بعضهم: لم يدرك هانئ بن مسعود هذا الأمر، قال: وهو أثبت عند أبي عبيدة... قال: فلما قتل كسرى النعمان استعمل إياس بن قبيصة الطائي على الحيرة وما كان عليه (النعمان). قال أبو عبيدة: قال عمر وكان كسرى لما هرب من بهرام جوبين يوم هزمه بالهزدان مر كسرى بإياس فأهدى له فرساً وجزوراً فشكر ذلك له كسرى، قال: فبعث كسرى إلى إياس أين تركة النعمان؟ قال: قد خزنها (يريد قد أحرزها) في بكر بن وائل، قال: فأمر كسرى أن يضم ما كان للنعمان ويبعث به إليه، قال: فبعث اياس إلى هانئ أن أرسل إلي بما استودعك النعمان من الدروع وغيرها، فالمقلل يقول: كانت أربعمائة درع والمكثر يقول: ثمانمائة درع فأبى أن يسلم خفارته، قال: فلما منعها هانئ غضب كسرى فأظهر أنه مستأصل بكر بن وائل وعنده النعمان بن زرعة التغلبي وهو يحب هلاك بكر، فقال لكسرى: يا خير الملوك أدلك على عدو يطلبهم وعلى غرة بكر، قال: نعم، قال: أمهلنا حتى نقيظ فإنهم لو قد قاظوا تساقطوا على ماء لهم يقال له: ذو قار تساقط الفراش في النار فأخذتهم كيف شئت وأنا عندك إلى أن أكفيكهم ومع ذلك فان مُطالبيهم في ذلك الوقت كثير وذلك مما يوهن كيدهم ويكون أيسر على الملك مطالبتهم لمن يشغلهم ممن يطلبهم بالذحل، فترجموا له قوله (تساقط الفراش في النار) فأقرهم حتى إذا قاظوا جاءت بكر بن وائل فنزلت بالحنو حنو

ذي قار وهو من ذي قار على مسيرة ليلة. قال: فأرسل كسرى إليهم النعمان بن زرعة أن اختاروا من ثلاث خصال واحدة: إما أن تعطوا بأيديكم فيحكم فيكم الملك بما شاء، وإما أن تُعروا الديار، وأما أن تأذنوا بالحرب، قال: فنزل النعمان على هانئ فقال: أنا رسول الملك إليكم أخيركم إحدى ثلاث خصال إما كذا وإما كذا وإما كذا على ما مضى. قال: فتوامروا بينهم ثم إنهم اختاروا الحرب فولوا أمرهم حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي وكانوا يتيمنون به في حروبهم وما ينوبهم فقال لهم: إني لا أرى إلا القتال فلأن يموت الرجل كريماً خير له من أن يحيا مذموماً؛ لأنكم إن أعطيتم بأيديكم قُتلتم وسبيت ذراريكم، وإن هربتم قتلكم العطش وتلقاكم تميم فتهلككم فآذنوا الملك بحرب. قال: فبعث كسرى إلى إياس وإلى الهامز التستري وكان مسلمة بالقطقطانة وإلى خنابزين وكان مسلمة أيضاً ببارق. قيل: وكتب كسرى إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذي الجدين وكان كسرى استعمله على طف سفوان أن يوافوا إياساً فإذا اجتمعوا فإياس على الناس. قال: وجاءت الفرس ومعها الجنود والفيول عليها الأساورة (وقد بعث النبي ﷺ قال وقد رق أمر الفرس وأدبر ملكهم فقال النبي ﷺ في ذلك: اليوم انتصفت العرب من العجم بي قال: فحفظ ذلك اليوم فإذا هو يوم الواقعة). قال: فلما دنت جنود الفرس من بكر بمن معها انسل قيس بن مسعود ليلاً فأتى هانئاً فقال: اعط قومك سلاح النعمان فيقوا به أنفسهم فإن هلكوا كان تبعاً لأنفسهم وكنت قد أخذت بالحزم وإن ظهروا ردوه عليك، ففعل وقسم الدروع والسلاح في ذي القوة والجلد من قومه. فلما دنا الجمع من بكر بن وائل قال لهم هانئ: يا معشر بكر إنه لا طاقة لكم بجنود كسرى ومن معهم من العرب فاركبوا الفلاة، قال فتسارع الناس إلى ذلك فوثب حنظلة بن سيار فقال

له: إنما أردت نجاتنا فلم تزد على أن ألقيتنا في التهلكة فرد عليه الناس فقطع وُضُن الهوادج، قال: وإنما فعل ذلك لئلا تستطيع بكر أن تسوق بالنساء إن هربوا فسُمي مقطع الوضن قال: ويقال مقطع البُطن (والبطن حزم الأقتاب والوضن حزم الرحال، قال أبو عثمان: وسمعت أم صبيح الكلابين ويقال لها الذلفاء وكانت من أفصح الناس وسألتها عن النسوع فقالت: إنا لنضنها معشر النساء). وضرب حنظلة قبة على نفسه ببطحاء ذي قار وآلى أن لا يفر حتى تفر القبة فمضى من مضى من الناس ورجع أكثرهم، قال: فاستقوا ماء لنصف شهر، قال: فاتتهم العجم فقاتلتهم بالحنو حنو قراقر فجزعت العجم من العطش فهربت فتقدمت عجل وأبلت يومئذ بلاء حسناً، قال: واضطمت عليهم جنود العجم فقال الناس هلكت عجل، ثم حملت بكر فوجدت عجلاً ثابتة تقاتل وامرأة منهم تقول:

إن يظفروا يحرزوا فينا الغرل إيه فدى أبي لكم بني عجل

وتقول أيضاً تحرض الناس:

إن تَهزموا نعانق ونفرش النمارق

أو تُهزموا نفارق فراق غير وامق

قال: فقاتلوهم بالجبابات يوماً ثم عطشت الأعاجم فمالوا إلى بطحاء ذي قار، قال: وأرسلت إيادُ إلى بكر سراً وكانوا أعواناً على بكر مع إياس بن قبيصة أي الأمرين أعجب إليكم أن نطير تحت ليلتنا فنذهب أو نقيم حتى نفر حتى تلاقون القوم، قالوا: بل تقيمون فإذا التقى الناس انهزمتم بهم. فصبحتهم بكر بن وائل والظعن واقفة يذمرن الرجال على القتال ويحضضنهم

على لقائهم والصبر على ذلك، وقال يزيد بن حمار السكوني وكان حليفاً لبني شيبان: أطيعوني واكمنوا لهم كميناً ففعلوا وجعلوا يزيد بن حمار رأسهم فكمنوا في مكان من ذي قار يسمى إلى اليوم الخبيء قال: فاجتلدوا وعلى ميمنة هانئ بن قبيصة رئيس بكر يزيد بن مسهر الشيباني وعلى ميسرته حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي، وجعل الناس يتحاضون ويرجزون فقال حنظلة بن ثعلبة:

قد جد استياعكم فجدّوا ما علتي وأنا مؤد جلد

(قال: مُؤد أي ذو أداوة من السلاح تامة يقول فلا عذر لي)

والقوس فيها وتر عـــرد مثل ذراع البكر أو أشـد

قد جعلت أخبار قومي تبدو إن المنايا ليس منهـا بُـد

هذا عبيد تحتـــه ألـــد يقدمه ليس له مَـــرَد

حتى يعود كالكميت الوردُ خلوا بني شيبان فاستبدوا

نفسي فدتكم وأبي والجد

وقال حنظلة أيضاً:

يا قوم طيبـوا بالقتال نفسا أجدرُ يـوم أن تفـلوا الفرسا

وقال يزيد بن المكسر بن حنظلة بن ثعلبة بن سيار:

من فر منكم فر عن حريمه وجاره وفر عن نديمـــه

إن ابن سيار على شـكيمه إن الشراك قُدَّ من أديمـــه

وكلهم يجري على قديمـه من قارح الهجنة أو صميمه

قال فراس: ثم صيروا الأمر بعد هانئ إلى حنظلة بن ثعلبة بن سيار فمال إلى مارية ابنته وهي أم عشرة نفر أحدهم جابر بن أبحر فقطع وضينها فوقعت إلى الأرض وقطع وضن النساء فوقعن إلى الأرض، ونادت بنت القرين الشيبانية، حين وقعت النساء إلى الأرض:

ويهاً بني شيبان صفاً بعد صف إن تُهزموا يصبغوا فينا القلف

فقطع سبعمائة من بني شيبان أقبيتهم من قبل مناكبهم وذلك لأن تخف أيديهم لضرب السيوف فجالدوهم ونادى الهامرز مرد و مرد (يريد رجل ورجل) فقال برد بن حارث اليشكري: ما يقول؟ قال: يدعو إلى البراز رجل ورجل، قال: وأبيكم لقد أنصف. قال: فحمل عليه برد بن حارثة اليشكري فقتله، ويقال يزيد بن حارثة. فقال سويد بن أبي كاهل في ذلك:

منا يزيد إذا تحدى جموعكم قلم تقربوه المرزبان المسودا

ويروى المسورا. قال: ونادى حنظلة بن ثعلبة بن سيار: يا قوم لا تقفوا لهم فيستغرقكم النشاب، فحملت ميسرة بكر وعليه حنظلة على ميمنة الجيش وقد قتل يزيد رئيسهم الهامرز، وحملت ميمنة بكر وعليها يزيد بن مسهر على ميسرة الجيش وعليهم خنابزين. قال: وخرج عليهم الكمين من خبيء ذي قار من ورائهم وعليهم يزيد بن حمار فشدوا على قلب الجيش قال: وفيهم إياس ابن قبيصة وولت إياد منهم وانهزمت الفرس. قال سليطُ: فحدثنا أسراؤنا الذين كانوا فيهم يومئذ قالوا: فلما التقى الناس وولت الفرس منهزمة قلنا يريدون الماء فلما قطعوا الوادي وصاروا من ورائه وجازوا الماء قلنا هي الهزيمة، قال: وذاك في حد الظهيرة في يوم قائظ شديد حره، قال: فأقبلت كتيبة عجل

كأنهم طن قصب لايفوت بعضهم بعضاً يطرفون لا يمعنون هرباً ولا يخالطون القوم ثم تذامروا (يقول لام بعضهم بعضاً) فرجعوا فرموا بجباههم فلم يكن إلا إياها فأمالوا بأيديهم فولوا فقتلوا الفرس و من معهم بين بطحاء ذي قار حتى بلغوا الراحضة. قال فراس: فحدثت أنهم تبعهم تسعون فارساً لم ينظروا إلى سلب ولا إلى شيء حتى تعارفوا بأدم وهو قريب من ذي قار فوجد منهم ثلاثون فارساً من بني عجل وستون فارساً من سائر بكر وقتلوا خنابزين قتله حنظلة بن ثعلبة بن سيار، وقال ميمون أعشى بني قيس ثعلبة يمدح بني شيبان خاصة في قوله:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... وراكبها يوم اللقاء وقلت

هم ضربوا بالحنو حنو قراقر ... مقدمه الهامرز حتى تولت

وأفلتنا قيس وقلت لعله ... يشيب وإن كان به النعل زلت

قال: فهذا يدل على أن قيساً شهد ذي قار. وقال بكير: أصم بني الحارث بن عُباد، يمدح شيبان:

إن كنت ساقية المدامة أهلها ... فاسقي على كرم بني همام

وأبا ربيعة كلها ومحلماً ... سبقا بغاية أمجد الأيام

ضربوا بني الأمرار يوم لقوهم ... بالمشرفي على مقيل الهام

عرباً ثلاثة آلف و كتيبة ... ألفين أعجم من بني الفدام

شد ابن قيس شدة ذهبت لها ... ذكرى له في معرق وشآم

عمرو وما عمرو بقحم دالف ... فيها ولا غمر ولا بغلام

فلما مدح الأعشى والأصم بني شيبان خاصة غضبت اللهازم فقال أبو كلبة أحد بني قيس بن ثعلبة يؤنبهما بذلك :

جُدّعتما شاعري قوم ذوي حسب ... حزت أنوفكما حزاً بمنشـــار

أعني الأصم وأعشانا إذا اجتمعـا ... فلو استعانا على سمع وابصار

لولا فوارس لا ميل ولا عـــزل ... من اللهازم ما قاظوا بذي قـــار

نحن أتيناهم من عند أشـــملهم ... كما تلبس وراد بصـــــدار

قال أبو عمرو بن العلاء فلما بلغ الأعشى قول أبي كلبة قال : صدق . . .

وقال أعشى أبي ربيعة :

ونحن غداة ذي قار أقمنـا ... وقد شهد القبائل محلبينا

وقد جاؤوا بها جأواء فلقاً ... ململمة كتائبها طحونـــا

ليوم كريهـة حتى تجلـــت ... ظلال دجاه عنا مصلتيـنا

فولونا الدوابر واتقونـــا ... بنعمان بن زرعة أكتعينـا

وذدنا عارض الأحرار ورداً ... كما ورد القطا الثمد المعينا

وقال أبو النجم العجلي في الإسلام يفخر بيوم ذي قار :

نحن أبحنا الريف للممتار ... يوم استلبنا راية الجبار

بأسفل البطحاء من ذي قار

وقال العذيل بن الفرخ العجلي :

ما أوقد الناس من نار لمكرمـة ... إلااصطلينا وكنا موقدي النار

وما يعدون من يوم سمعت به للناس أفضل من يوم بذي قار
جئنا بأسلابهم والخيل عابسة يوم استلبنا لكسرى كل أسوار

وقال الأخطل، يفخر على جرير أنهم شهدوا يوم ذي قار:

هلا كفيتم معـــداً يـــوم معضلـــة كما كفينا معداً يوم ذي قـــــار
جاءت كتائب كسرى وهي مغضبة فاستأصلوها وأردوا كل جبار

قال أبو عبيدة وقال عامر ومسمع قد أدرك الحوفزان بن شريك يوم ذي قار وقاتل وقال في ذلك الشعر:

لما رأيت الخيل شك نحورها حراب ونشاب صبرت جناحا

(جناح اسم فرسه)

على الموت حتى أنزل الله نصره وود جناح لو قضى فاستراحا

وقال عائذ الله: ويقال بل قالها رجل من بني شيبان آخر ولم يدرك الحوفزان ذي قار وقالها بشر أخو الحوفزان. قال: وأما من شهد يوم ذي قار من تميم فإن أبا عبيدة حدثنا قال: أخبرني سليط قال: لما كان يوم ذي قار وكان في بكر أسراء من تميم أكثرها من بني يربوع قالوا لهم: خلونا نقاتل معكم فإنا طلقاء خير لكم من أسراء، قالوا: إنا نخاف أن تهربوا فتواثقوا بأن لا تفعلوا فواثقوهم أن يرجع من لم يقتل منهم حتى يضع يده في أيديهم، قال: فخلوهم فقاتلوا معهم. قال أبو عبيدة فحدثني بتصديق هذا مسحل بن زيداء بنت جرير قال: أخبرنا جرير قال: لما كان يوم ذي قار وكان في بكر أسراء من تميم قريب مائتي أسير وفيهم جزء بن سعد الرياحي أحد بني رياح بن يربوع أسيراً فقال: خلونا نقاتل معكم

فإنا نذب عن أنفسنا، قال: فواثقوهم ليرجعن إليهم إن سلموا وقالوا لهم: نخاف أن لا تناصحوا، فقالوا لهم: دعونا فلنعلم حتى تروا مكاننا ويرى غناؤنا قال: فأعلموا فذلك قول جرير:

منا فوارس ذي بَهْدا وذي نجب ... والمعلمون صباحاً يوم ذي قار

مسترعفات بجزء في أوائلهـــا ... وقعنب وحماة غير أغمـــار

قال: وأما عامر بن عبدالملك فزعم أن فارساً لما غزتهم تسامعت بذلك العرب فجاء ثمانون من أهل بيت من بني يربوع وناس من بني ضبة فقالوا: نكون قريباً فإذا انهزمت بكر أغرنا فيمن يغير فبلغ ذلك بكراً فقالوا: نبدأ بهؤلاء فوجهوا إليهم المكَسَّر الأضجم الضراري وأسروا بقية القوم فلم يزالوا عندهم حتى التقوا وفارس فحلّوهم من وثاقهم فقاتلوا معهم. قال عامر بن عبدالملك المسمعي: فلم تفخر تميم بهذا. قال ضرار بن سلامة العجلي في ذلك:

كسونا الأضجم الضبي لما ... أتانا حد مصقول رقيـــق

وفرت ضبة الجعراء لمـــا ... أجد بهن إثعاب الوسـيق

أسرنا منهم تسعين كهـــلاً ... نقودهم إلى وضح الطريق

وجالوا كالنعام وأسلمونا ... إلى خيل مســـومة ونوق

(النقائض ص ٦٣٨-٦٤٨)

[أخبار] عبيد الله بن زياد

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى في روايته: عاد ابن زياد عبدالله بن نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي ثم خرج من عنده فلقيه حمران مولاه وكان قد وجهه

إلى يزيد فأسر إليه موت يزيد واختلاف أهل الشام، فأمر عبيد الله فنودي الصلاة جامعة، ثم خطب فنعى يزيد وحض الناس على الطاعة وقال: اختاروا لأنفسكم فماسحوه ثم بدا لهم في بيعته وجعلوا يمسحون أيديهم منها بالحيطان. وكان في سجنه نافع بن الأزرق الحنفي ونجدة بن عامر الحنفي وعبدالله بن إباض وعبيدة بن هلال العنزي وعمرو القنا بن عميرة من بني ملادس بن عبب شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم وكانوا غضبوا للبيت فقاتلوا مع ابن الزبير وهم لا يرون نصره ولكنهم احتسبوا في جهاد أهل الشام، ثم إنهم قدموا البصرة فالتقطهم ابن زياد وحبسهم، فيقال: إنه كان في سجنه من الخوارج مائة وأربعون.

قال أبو عبيدة في بعض روايته: لما كان موت يزيد بن معاوية وإظهار ابن زياد إياه بالبصرة خرج سلمة بن ذؤيب الرياحي الفقيه وهو على فرس له شهباء وقد لبس سلاحه ومعه لواء فدعا الناس إلى بيعة ابن الزبير وطاعته وقال: عليكم بالعائذ بالبيت وابن حواري رسول الله ﷺ فبايعه جماعة يسيرة، وبلغ ابن زياد ذلك فخطب الناس فاختص أول أمره وأمر أبيه بالبصرة وعدد بلاءه عند أهلها ثم قال: بايعتموني ثم مسحتم أيديكم بالحيطان وقلتم ما قلتم ثم هذا سلمة بن ذؤيب يدعوكم إلى الخلاف إرادة أن يفرق جماعتكم ليضرب بعضكم جباه بعض، وكان الذي أخبر ابن زياد بأمر سلمة بن ذويب عبدالرحمن بن بكرة ويكنى أبا الحر، فقال الأحنف بن قيس والناس: نحن نجيئك بسلمة، فأتوا سلمة فإذا معه جمع كثيف قد سافر إليه وإذا الفتق قد اتسع فامتنع عليهم فلما رأوا ذلك قعدوا عن ابن زياد فلم يأتوه، فقال: والله لقد لبسنا الخز حتى أجمته جلودنا فما بنا إلى أن نعقبها الحديد أياماً والله لو اجتمعتم على قرن عنز

لتكسروه ما كسرتموه ودعا البخارية ومن كان من أصحاب السلطان إلى المحاربة معه فلم يجيبوه واعتلوا عليه فانغمس في الأزد في بيت مسعود.

قال: وكان في بيت مال ابن زياد نحو ثمانية آلاف ألف درهم، فقال للناس حين خطب: هذا فيئكم فخذوا أرزاقكم وأرزاق عيالاتكم وذريتكم وأمر الكتاب بتحصيل الناس وتقرير مالهم فلما رأى قعود الناس عنه وظهر سلمة كف عن ذلك وأمر بنقل المال حين هرب فهو يتردد في آل زياد. وقال له إخوته: والله ما من خليفة نقاتل عنه ولا تأمن أن يدال عليك فتعطب وتهلك ويذهب أموالنا، وقال له عبدالله أخوه وهو ابن مرجانة: والله لئن قاتلت القوم لأقتلن نفسي بسيفي هذا، فلما رأى عبيدالله ذلك أرسل إلى الحارث بن قيس بن صهبان الجهضمي فسأله أن يسأل مسعوداً أن يجيره فسأله ذلك فأباه فقال له الحارث: يا معشر الأزد إنكم أجرتم زياداً فبقي لكم شرف ذلك وذكره وفخره، فقال مسعود: أترى أن نعادي أهل مصرنا في عبيد الله و قد أبليناه فلم يُكافنا ولم يشكر، ما كنت أحب أن يكون هذا رأيك، فقال: قد بايعته فيمن بايع ولن يعاديك أحد على الوفاء له فلما أبى مسعود على الحارث إجارة ابن زياد أنس إلى أم بسطام امرأة مسعود وهي ابنة حمه فقال لها: إني دعوت مسعوداً إلى مكرمة فأباها وأنا أدعوك إلى أن تسودي نساء قومك أبداً وكلمها في إجارة ابن زياد فأجارته، ويقال: إنه أعطاها مائة ألف درهم كانت مع ابن زياد فأدخلته حجلتها وألبسته ثوباً لزوجها فلما جاء مسعود أعلمته ذلك فغضب وأخذ برأسها حتى خرج عبيد الله والحارث فحجزا بينهما وقال له عبيد الله أجارتني عليك وألبستني ثوبك وأكلت من طعامك وقد التف علي منزلك وتلطف والحارث له حتى رضي، فلم يزل في منزل مسعود حتى قتل مسعود ثم شخص

إلى الشام. وقال أبو عبيدة: وآل زياد ينكرون أن يكون ابن زياد شخص قبل قتل مسعود وأن يكون مسعود بعث معه من يردفه.

وقال يزيد بن ربيعة بن مفرغ شعراً ذكر فيه فرار ابن زياد من دار الإمارة إلى الأزد ثم إلى الشام بعد مقتل مسعود وخذلانه وذكر هربه عن أمه وامرأته هند الفزارية:

أقر لعيني أنه عق أمه ... دعته فولاها أسته وهو يهرب
وقال عليك البأس كوني سبية ... كما كنت أو موتي فللموت أقرب
وقد هتفت هند به ما أمرتني ... أبِنْ لي وخبرني إلى أين أذهب
فقال أريد الأزد في عقر دارهم ... وبكراً فمالي عنهم متجنب
بما قدمت كفاك ما لك مهرب ... من القوم يوماً والدماء تصبب
ولو كنت صلب العود أو ذا حفيظة ... كررت على هند وهند تشجب
وغادرت مسعوداً رهينة حتفه ... يمج نجيع الخوف وهو مُخلب
ولو لم يفت ركضاً حثيثاً لحلقت ... بأشلائه في الجو عنقاء مُغرب

وقال أيضاً:

قدمت مسعوداً ليصلى حرها ... وفألت لما أن نعاه الناعي
أفلا مررت وراءه متشرباً ... لما أصيب دعا بحتفك داع
وتركت أمك والرماح شوارع ... يا ليتني لك ليلة الأفزاع
ليس الكريم بمن يفارق أمه ... وبناية بالمنزل الجعجاع
وخذلت مسعوداً وطرت مولياً ... مثل الظليم أثرته بالقاع

قال أبو عبيدة : فهذا دليل على أنه إنما هرب إلى الشام بعد مسعود، وأنه حين قتل مسعود كان بالمصر لم يبرح .

قال أبو عبيدة : ولما هرب ابن زياد بقي الناس بغير أمير فلما لم يكن لهم أمير ارتضوا بنعمان بن صُهبان الراسبي وقيس بن الهيثم يختاران لهم فكان رأي قيس في عبدالله بن الأسود الزهري ورأي النعمان بن صهبان في ببة وقال النعمان: هو هاشمي وابن أخت القوم الذين الملك فيهم لأن أم ببة هند بنت أبي سفيان، وكان النعمان شيعياً شهد مع علي صفين وأقبلوا ببة فنزل دار الإمارة. قال أبو عبيدة: وكان ذلك برضا جميع الناس الأزد وغيرهم، وقوم يقولون: إن ذلك لم يكن برضى الأزد فقولهم باطل . قال الفرزدق:

وبايعت أقواماً وفيت بعهدهم وببَّة قد بايعته غير نادم

وقوم يروونه: وهو نائم.

(البلاذري - أنساب الأشراف ج٤ ص ١٠١-١٠٥)